

## القصـد والغاية

فى الطبيعة وما بعد الطبيعة

يربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟  
 مسيرك قل لنا فى أى شىء ففى أفهامنا منك انبهار ؟  
 وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار ؟  
 وموج ذا المجرة أم فرند على لجج الدروع له أوار ؟

✱

✱ ✱

منذ أن ترامى أول شعاع أرسله الفكر فشق فى ظلمات القرون الاولى لفلسفة طريقاً الى خفايا العالم المجهول ، تساءل الانسان لماذا خلق العالم ؟ وأية غاية سبقت فى حكم القدر ليخرج هذا الكون قائماً على ما نرى فيه من نظام ؟ ان أردت أن تقع على جواب ينقع غلتك ويرأب بقوة أدلته ما تصدع من يقينك ، فأجب لا أدري ؟ كن لا أدرياً أزاء هذا اللغز الوعر ولا تحفل بما ينقل اليك من التقاليد . أما اذا سئلت ، أهنا لك من قصد فى خلق العالم ، وهل من غاية لاجائها خلق الانسان ؟ فأجب اجابة الادريين ، وقل نعم . لا بد أن يكون من وراء هذا النظام الشامل قصداً كامناً وغاية مخبوءة لا أعرف من ماهيتها شيئاً . فان هذا النظام اذ يدل على قوة تدبره على مقتضى الحكمة ، فلا بد من أن تكن وراء ظواهره غاية هو سائر فى نظامه نحوها ، متجه بكل ما فيه من النشوء

والارتقاء الى باوغ سمعتها القصى والانتهاء عند ذروتها العليا

انقسم الناس منذ أن بزغ فجر الفلسفة فى بلاد اليونان ، التى وصل اليها من آثارها العقلية ما اعتبره أكبر ميراث ورثه العقل البشرى عن القرون الاولى ، الى فريقين . فمنهم من قال بأن وراء النظام الظاهر قوة تدبره بحكمتها ومحوطه بعنايتها ، وأن هذه القوة لا بد من أن تسير بالعالم الى قصد وتسوقه الى غاية ،

نستدل عليهما بما هو مبثوث في أطراف هذا العالم من نظام لا ينتابه خلل ولا نلاحظ في نواحيه من شيء لا يدل على أنه له موجدًا . ويقول هؤلاء إن الإنسان إنما يقيس حالات العالم الخارجى على حالات نفسه ، فكما أن الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط ليس سوى صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، كما يقول العلامة كروزيار ، ليست سوى صورة مكبرة من نظريات العقل الانسانى تسبك عادة على نماذج تستمد من تجاربنا الذاتية . وعلى هذا لا يستطيع أن يكون في العالم فكرة منطبقة على حقيقته المطلقة ، غير مقيدة بحدود العقل والذاتية البشرية . هذا مثال الاول .

ومن الفلاسفة من يقول بأن هذا العالم قد صدر عن العماء الصرف على الرغم مما يظهر فيه من نظام . وان القصد في العالم غير بين ، والغاية لا يمكن أن تدرك من بضعة نظم يسير العالم على مقتضاها ولا يمكن للعلم أن يدرك منها شيئاً بطرقه الموضوعية ، الا من طريق الحس الانسانى . ولما كان العلم لا يعتمد الا على الحواس وحدها ، ولما كانت الحواس لا تنقل الى العقل سوى تجارب لا تدل طبيعتها على أن في خلق العالم قصداً ، أو أن في خلق الانسان غاية ، فان نستطيع أن نسلم بقصد وغاية تكمنان وراء الظواهر الا اذا ثبت لنا ذلك من طريق الحواس . ان العالم كتلة موات من المادة والحركة ، وأن الحياة والفكر وكل خصائص الانسان ليست سوى أعراض مختلفة لتفاعل المادة والقوة التى تحرك دقائقها . وهذا مثال الفريق الثانى .

كل فريق من هذين الفريقين بما لديه فرح فخور . فمن أى الفريقين تريد أن تكون ؟ تابعنى قليلا ونقل معى خطاك في بحث قصير يمكنك أن تكون لنفسك من بعده فكرة مستقلة ، اذا عنيت بعض العناية بتفهم الحقائق التى يقوم عليها .

خلق العقل الانسانى مقسورا على أن يعتقد ببضعة حقائق أولية لا يمكن

بدوها أن يحتفظ بالفتة التي ينحصر فيها كل معنى من المعاني التي تفضله عن بقية الخلق الأدنى منه في الطبيعة نسبا وأحط مكانة . لهذا ترى الناس منصرفين في حياتهم وهم على شعور تام بأنهم يملكون شيئا يكن بين جوانحهم يسمونه القوة المدركة وأنهم يحوزون شيئا آخر يدعونه حس الجمال والموسيقى والشعر ؛ وأن هذه الضروب المتنوعة من الحس السكامن إنما تظهر لهم كأشياء أولية ظاهرة بجانب ذلك الشيء الغامض المبهم الذي يسمونه الإرادة الخفية التي لا يستطيع انسان اكتملت ألفة عقله أن يعضى معتقدا بان ليس لها وجود حقيقى . لهذا نسوق مباحثنا لنخلص منها بنتيجة تظهرنا على أن القصد والغاية تكمنان وراء كل الظواهر الطبيعية .

ينكر الماديون أن للإرادة وجودا حقيقيا ، ولماذا ؟ لأنهم انسلموا أن للإرادة وجودا حقيقيا لما استطاعوا أن يخلصوا مطلقا من النتائج التي تترتب على هذا القول ؛ ولما أمكنهم أن يخرجوا من قولهم هذا الا معتقدين مع الآلهيين ، بأن للعالم خالقا مدبرا حكيما تبدو ارادته وتظهر حكمته جليلة في نواحي الكون ، ولذا تراهم يقولون بأن الإرادة ليست الا عرضا لاهتزاز دقائق المخ المادية ، على الضد مما يقول به المثبتون للقصد من خلق العالم إذ يعضون معتقدين بان الإرادة ليست الا الانتقال من حركة عقلية الى فعل طبيعى . فاذا أردت أن تمشى مثلا فانك إنما تنفذ حركة المشى اذ تقوم في عقلك ارادة تحملك رغما منك على أن تتبع هواها .

من هذا ندرك أن الماديين والآلهيين يختلفون من حيث الاعتقاد في السببية الصحيحة التي تقوم عليها الإرادة ؛ يقول الاولون إن السبب الحقيقى في الإرادة ينحصر في اهتزاز دقائق المخ المادية التي تنتج كل الصفات العقلية ؛ ويقول الآلهيون إن الإرادة عبارة عن خاصية من الخاصيات التي يتصف بها

العقل الانساني ، ولذا فهي لا تعود الى سبب منه تستمد ، وانما لها وجود حقيقي قائم بذاته .

فإذا تابعنا الماديين وأنكرنا أن للارادة وجودا حقيقيا وأنها ليست سوى عرض من أعراض السببية الحقيقية التي هي عند الماديين عبارة عن اهتزاز دقائق المخ المادية ، لم يحل بيننا وبين انكار كل الخصائص العقلية الاخرى حائل . وعلى نفس الدلائل التي ينكر بها الماديون الوجود الحقيقي للارادة نستطيع أن ننكر كل الخصائص والقوى والمدرجات الانسانية الاخرى ، نستطيع أن ننكر وجود الجمال والموسيقى ، بل لانقف عند هذا وحده ، فنمضي من ثم الى انكار أن هنالك فرقا حقيقيا بين منازع الفكر والعواطف . وتنفي من هذه السبيل على الفضائل ومضاداتها من الرذائل ، على اعتبار أن هذه الاشياء ليس لها من وجود حقيقي ، بل تنفي على كل قضايا العقل الانساني ولا نترك من ورائنا بعد هذا في الحياة البشرية بروتها من شيء يستحق أن يكون له قيمة صحيحة اللهم الا كتلة مواتا من المادة والحركة .

الى هذا المزلق الوعر يسوقك الماديون ، يسوقونك أمامهم سعيا إلى حيث تهتد ألفة عقلك وتقف حائرا أمام ما تحس به بين جوانحك إحساسا صحيحا .  
تناجى نفسك . اني خلقت مقسورا على أن أعتقد أن دقائق المادة تتجاذب وتتدافع لأنى اذا أردت أن أ كسر حجرا ، وكذلك اذا أردت أن أضغطه ، فإن جواهره ودقائقه تقاوم ارادتي في كلتا الحالتين ؛ ذلك في حين أنى لا أدرك كيف أن دقيقتين من المادة تتجاذبان في حين أنهما تتدافعان ؛ وكذلك أعتقد ان في الفضاء أثيرا يحمل الى شبكية عيني الضوء وينقل الى صماخ أذني مختلف الاصوات ، في حين أنى لم أر الاثير ولم أتساوله بتجربة تثبت وجوده من طريق الحواس ارضاء لطرائق العلم ؛ يهمس في روعك وحى العقل بأن لا أعتقد بفسير هذا وأن امتنع عليك حسيا ادراكه ؛ يهمس في روعك بأن للعالم المادى المحيط بك وجودا

حقيقيا على الرغم من أن الفلاسفة قد ينكرون وجوده كحقيقة ثابتة ، وعلى هذا تتدرج من الاعتقاد بالعالم الخارجي، الى الاعتقاد بالملك الكائن في تضاعيف فطرتك . تعتقد بأن هناك فرقا حقيقيا بين الفضيلة والرذيلة . وبين نهمو المدارك الروحانية وبين اسفاف النزعات السفلى . تدرك أن الانانية وحب الذات شر ، وأن الغيرية وانكار الذات خير . وعلى الجملة تدرك أن هنالك فروقا كائنة في عالم العقل بين منازل الفكر والعواطف .

بذلك تناجيك نفسك ويهمس في روعك عقلك . فاذا رجعت الى الماديين والفيتهم يرجعون بهذه المعاني جماعها بلا تفريق بينها الى اهتزازات دقائق غير مختلفة بعضها عن بعض أى اختلاف ما ، ولا تدرك من تلك الفروق شيئا مطلقا ، فلا يصح من شيء هو أثبت في يقينك من الاعتقاد بأنهم انما يازمون أنفسهم الحاجة بحكم المنطق بأن هذه المعاني لا يختلف بعضها عن بعض اختلافا حقيقيا .

ثم ارجع بعد هذا ثانية الى الارادة ، فانك تجد نفسك مقسورا على الاعتقاد بوجود حقيقى لها على الرغم من معتقد الماديين بانها ليست سوى عرض يلزم اهتزازات دقائق المخ المادية . فاذا اعتقدت بهذا وشعرت بان ألفة عقلك تتطلب منك سببا يعود اليه نظام العالم المادى ، واذا كان كل ما في مستطاع اختبارك أن يصل من علم بالسبب الاول والعللة الاولى ينحصر في الفعل العقلى لارادتك التى هي رغم مزاعم الماديين عبارة عن الانتقال من الحركة العقلية الى الفعل المادى ، أصبح من المحتوم ، مادمت قد قسرت على فطرتك التى فطرت عليها ، أن ترجع . تقتضى ألفة عقلك ومقتضيات تكوينه وخصائصه الى الاعتقاد بأن هذا الكون معلول لارادة عاقلة أى الى خالق ، وليس لك أن تبحث بعد ذلك فى أن لهذه الارادة العاقلة التى تدبر العالم وجودا حقيقيا يشبه العلم من طريق الحواس ، كما أنه ليس لك أن تبحث من طريق العلم المعتمد على الحواس الكائنة فيك ، ولا تخرج عن حيزك ، عن دليل يثبت لك وجود العالم المادى أو يظهر لك كيف

تتجاذب دقائق المادة وتتدافع ! وإنما كل ماتدرك وتعلم أنك جبلت على أن لا تستطيع أن ترد على عقلك الفته وأن تحتفظ بنظامه التي خلقت مقسوراً على الاعتقاد بصحة ما يوحى اليك به ، الا اذا مضيت مؤمناً بوجود خالق ذي ارادة حرة يدبر العالم على مقتضى الحكمة البالغة من سمو المعاني مبالغاً لن تدركه قواك البشرية المحدودة .

نعود بعد هذا ونكرر ثانية أن الانسان مقسور على أن يقيس حالات العالم المحيط به على حالات نفسه ، وأنه لا يستطيع أن يدرك علة العالم ادراكاً صحيحاً كاملاً ، وإنما كل ما في مستطاعه محصور في أن يدرك أن للعالم ارادة تدبره كما تدبر ارادته حركاته وأفعاله في الحياة .

وما دمننا قد سامنا بأن للعقل ألفة ونظاماً ، وما دامت الارادة خاصية من خصائص العقل ، فيترتب على هذا أن حكمة القصد في الاعمال الارادية لا تصدر الا عن عقل اكتملت ألفته ، ولا ترجع في مصدرها الا الى ألفة العقل . أما العقل الذي اكتملت ألفته فتصدر عنه ارادات تسير الاشياء على مقتضى الحكمة . وبحسب ما يكون في العقل من ألفة ونظام تكون نسبة الافعال قرباً أو بعداً عن مقتضى الحكمة المدركة بقدر الطاقة البشرية . وعلى هذا النهج تقاس دائماً ارادة القوة المدبرة لا كون . كما أن تسلسل الفكرة على هذه السبيل يقتضى أن نعتقد بأن القصد والغاية أمران لن ينفك عنهما عقل اكتملت ألفته .

غير أن هذه الفكرات في مجموعها لا تسلم ، كما يقول أبو العلاء المعري ؛ من خطرات تدس على حسن الضمير وعلى ألفة العقل نفسه . تحيط بك هذه الفكرات وتتساورك منتزعة منك قوة اليقين لتلقيك في غمرات الشك والحيرة اذا ما أزمعت أن تفكر في القصد والغاية التي من أجلها خلق الانسان ؟ وغالب ما يفكر الانسان في هذا مقسوراً عليه بمقتضى طبعه مدفوعاً اليه بحكم غرائزه . وأنا لا أنكر أن وقوف الفكر أزاء هذه الاشياء وأمثالها موقف اللاأدرية الصرفة

أسلم سبيلا وامن عاقبة من أن يمضي في التأمل منها فتكتسحه الى حيث المهواة السحيقة يتردى فيها الى أعماق الجحود والاحاد. غير أنك ان أمكنتك أن تنصرف عن التفكير في القصد والغاية التي من أجلها خلق كل شيء فكيف تستطيع أن تخلص من التفكير في القصد والغاية التي من أجلها خلقت أنت الكائن المفكر المعتقد في صحة عدده من الحقائق التي تحوطك بنتائجها ، وعلى الاخص اذا اعتقدت وكنت في ذلك محققاً ، أن فكرك الخفي وخطرات نفسك القصصية هي أعظم دليل يقوم عندك على وجودك في وسط عالم لن تبلغ فيه الى نهاية تفكيراً أو عملاً ! يخرج الانسان الى هذا العالم جرثومة حية ينبذها القدر نبذا فلا تلبث أن تكتمل بشراً سوياً ، ثم لا يلبث أن يذهب به الفناء منحدرًا به من جوف الازل البعيد الى جوف الابد اللامتناهي . تفكر فلا تعرف من أين أتى ولا الى أين ذهب . وأنت كلما تأملت من هذه الحالات لا تجد في العالم كله من سلوى تسليك عن التفكير في نشأتك ومنقلبك بعد الموت الا متاعب في الحياة لن تستطيع أن تقطع من عمرك مرحلة طالت أم قصرت من غير أن تعتقد أنه كان من الحكمة أن تظل حيث كنت قبل أن تولد مكفيا هموم الحياة الدنيا بعيدا عن أحزانها .

علام كل ما في هذه الحياة ؟ علام الحب والبغض ؟ علام الالم واللذة ؟ علام العسر واليسر ؟ ولاى شيء وضع لكل شيء نقيضه ونصب ، لكل أمر ضده ؟ ولاى شيء خلق كل شيء ؟ ولاية حكمة سبقت مشيئة الفيب أن يكون الامل في نفسك أعرق أصلا من اليأس في الحياة ؟ تقول الفلسفة الحققة لأدرى . وكفى بلا أدرى للفكر عاقلا عن الانبعاث مع التأمل في فلوات مجتذبة لا تبلغ منها الى نهاية . غير أنك اذا تركت الفلسفة ورجعت بعدها الى مباحث العلوم الحديثة وقعت فيها على شعاع يضيء سناه بعض ما يكتنف هذه الحياة من ظلام تشتد حلكته من حولك ، كلما تأملت في حالات حياتك والقصد منها .

وضع الفلاسفة في كل الاجيال أمثالا من فضائل الاخلاق لتحذيرها النفس  
المهذبة لتكمل بها ناسوتيتها العليا . من هذه الامثال انكار الذات والغيرية . وهي  
فضائل تظهر واضحة في سلوك الافراد ازاء بعضهم البعض وازاء المجموع الذي هم  
تابعون له والبيئة الراحية التي تقوم عليها صوالحهم في الحياة . خير ان اتباع ما تقتضي  
به هذه الفضائل في الاجتماع الانساني امر اختياري قد تفعله او لا تفعله مختارا  
غير مجبر . هذا على الرغم من ان للعقل والآداب في كلتا الحالتين حكماً يختلف  
 باختلاف الظروف . ولكن العلم الحديث قد أثبت في اواسط القرن التاسع عشر  
أن الانسان وكل الحيوانات العليا مقسورون على ضرب من الخيرية أثر الجبر  
فيه ثابت لا يتبدل وأثر الاختيار فيه معدوم البتة

اذا تصفحت الاساطير التي تضمنتها بلدات التاريخ الطبيعي في القرون  
الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر لما وقعت على شيء يمكن ان يدل من طريق  
على ان هنالك من قصد في خلق الحياة فوق هذه الارض . بل انك لم  
تسكن لتستطيع أن تفقه لاي الاسباب وضع نظام الاحياء في سلم من الارتقاء كن  
يظهر لاعين الباحثين جلياً واضحاً وان عجزوا عن تعليل السبب فيه قروناً ،  
حتى قام العلامة شارلز داروين ووضع نظريته في الانتخاب الطبيعي في اواسط  
القرن الفارط .

لقد كان لهذه النظرية ، نظرية النشوء والارتقاء بالانتخاب الطبيعي وحفظ  
الصفوف الغالبة في التناحر على البقاء ، من الاثر في كل فروع العلوم الحديثة  
مالاً يمكن أن تبلغ منه بفكرة صحيحة حتى تقف على تاريخ تقدم العلوم وتطور  
الفكرة فيها منذ ظهر العلامة كاسبار فردريك وولف الجرمانى (١٧٥٩) حتى ظهور  
كتاب أصل الانواع . (١٨٥٩) وما ترتب على ذبوع نظرية العلامة داروين  
من الآثار الجلى . على انه مهما كان طهه النظرية الفذة من أثر في العلوم الحديثة ،  
فاني اعتقد ، واعتقد بحق ، أن آثارها في المباحث الفلسفية لا يقل عن اثرها في

العلوم : واعتقد فوق هذا أنا ما من شيء في هذه النظرية أبعد مدى في التأثير على العقل الانساني من ناحية فلسفية صرفة في اثبات القصد في علاقة بعض الاحياء ببعض . ذلك القصد الذي يبدو واضحاً دالاً على أن نظام الكون الطبيعي الثابت الراجع في أصل منشئه الى فعل ارادة مدبرة يكن قصدها وتختفي غايتها وراء الظواهر انما هو نظام شامل لا ينفلت عن قطره شيء حتى الاحياء العليا والدنيا بما فيها الانسان ذاته .

لقد كانت لمباحث داروين في علم الحياة أثر قلب الفكرة القديمة في نظام الاحياء المرفولوجي ( أى الخاص بالصورة والتركيب ) . فان علماء الحيوان والباحثين في التاريخ الطبيعي كانوا يعتقدون ان اللون وحسن الصورة وجمال التركيب وما الى هذه الاشياء التي كانوا يقفون عليها لدى بحثهم صور الحيوانات التي يتناولونها بالوصف ولا يعلقون عليها بشيء مما يمكن استقراؤه فيها من عضات الطبيعة البالغة ليست سوى اشياء لم تتصف بها الصور الحية الا ارضاء لحس الجمال أو اقناع شهوة الالتذاذ والمتعة بها في الانسان . وكان اعتقادهم ان الخالق لم يحدث في الاحياء كل صور الجمال الا ليرضى الحيوان الناطق المدرك لحقيقة شيء لا يدركه الحيوان الصامت وعلى هذا الاعتقاد ظالوا عاكفين طوال قرون عديدة

على ان فكرة القصد الفلسفية مصبوبة في هذا القالب لم تستمكن من عقول الباحثين في علم وظائف الاعضاء والتشريح استمكناً ينزل منزلة العقائد العلمية الاخرى

على أنه كان من المؤلف في القرون الوسطى حتى في اواخر القرن الثامن عشر أن يعكف بعض الباحثين على التأمل من حالات غامضة مبهمه تتناول مسألة المكافأة بين المخلوقات بعضها نحو بعض وبينها وبين البيئة التي تعيش مكتنفة بآثارها . وظلت هذه الفكرة السامية تساورها الشكوك والريب حتى وضع داروين نظريته المعروفة في النشوء والارتقاء ، فطبقتها من بعده الباحثون

على فكرة القصد في نظام الطبيعة تطبيقاً مقتطعا من حالات اتخذت فيها  
الحيونات الراقية في سلم المراتب الحيوانية أمثالا تؤيدها . فان نظرية داروين  
تقوم على معتقد بسيط ثابت في ان كل عضو أو جزءاً من عضو ، وأن كل  
الخصائص الظاهرة والباطنة في العضويات ، لا بد من أن تعود بالنفع اما على ذلك  
الكائن بالذات واما انها كانت ذات فائدة لسلف من اسلاف الغابرين ، وأنه ما من  
خاصية من الخصائص العديدة والغرائز المختلفة في طبائع العضويات قد استحدثت  
فيها لمجرد النفع أو ارضاء لشهوة الجمال والبهجة في كائنات أخرى . وعلى مقتضى  
ناموس الانتخاب الطبيعي يكون السبب في وجود التراكيب المختلفة في  
الكائنات راجع اما لانها مفيدة لها ولذلك تنتخب للبقاء ثابتة في تضاعيفها ، واما لانها  
كانت مفيدة لاسلافها ولذلك انتقلت مورثة في الاعقاب

هذه الفكرة الاولى في تطبيق نظرية القصد الفلسفية على الكائنات  
الحية وعلى الطبيعة استتباعاً ، مضافاً اليها فكرة أن الكون آخذ في النشوء ضارب  
في الارتقاء بقسط وافر ، تزيج عن العقول بعض ما كان يكتنفها من ظلام لدى  
التفكير في القصد من الخلق وفي الحياة برمتها وفي الموت الذي يتلو الحياة ذاهبا  
بالاحياء في طريق واحد . فاذا ثبت أن ذلك الطريق يسلم الى الخلود ، فهناك  
تحل مشكلة القصد في الطبيعة حلانها ، واذا ثبت ان ذلك الطريق  
يسلم الى الفناء الصرف ، ظلت تلك الغيامة الكثيفة تظلل العقل الانساني  
ازمانا لا تقدرها